الخلـــق

تعريفه . تكونه . المؤثرات فيه .

أنظر إلى الطبيعة أمامك . فهل ترى فيها شيئاً آكد أو أجلى من الحركه ؟

لا تعد والحقيقة إذا قلت : لا وجود للطبيعة بدون الحركة . فالحركة دليل الحياه والسكون دليل الموت .

النبات يتحرك ، والحيوان يتحرك ، والانسان يتحرك ، ولا يهمنا هنا أن نعرف مصدر الحركة فى النبات ، أو فى الحيوان ، إنما الذى يهمنا أن نعرف مصدر الحركة فى الإنسان .

فما مصدرها ؟

هل هو العقل فحسب على معنى أنك تطلق الفعل بعد الروية دائماً ؟ أو بجوار العقل شيء آخر يدفع الإنسان إلى الحركة ؟

نشاهد على مسرح هـــذه الحياة أفعالا نافعة كأن تستعمل صحتك ، أو يسارك على ما ينبغى ويجب ويستحق . وهذه أفعال مصدرها العقل .

ونشاهد أفعالا تضر كالكذب ، والسرقة ، والخيانة وهذه أفعال لم تصدر عن عقل ، وإنما تصدر عن شيء آخر هو الطبع ، أو الخلق الفطرى .

فمصدر الحركة عند الإنسان إذن هو :

١ — الطبع ، أو الخلق الفطرى ،

٢ — العقل .

والطبع هو المصدر الأول للحركة ولو ترك يفعل وحده لكنا حيوانات.

والعقل هو المصدر الثانى ، ولو ترك يفعل وحده لكنا مخلوقات وجدانية ليس إلا .

ومن وظيفة هذا المصدر الثانى أنه يُدرِّب الأول ويُذلِّله ويُخضعه لضوابط القانون الأخلاقى .

فالإنسان العاقل هو البصير بما يحتاج إليه فى أمر معاده ، المنفِّذ لبصيرته بعزيمته .

والبصيرة : « قُوَّةٌ للقلب المنوَّر بنور القدس ، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس فأنك ترى به صور الأشياء وظواهرها ، وهى التى يُسميها الحكماء العاقلة النَّظرية والقوة القدسية (١) .

وتعجبنى هنا كلمة فى هذا المعنى للآنسة « هيلين كيلر » العَمياء الصَّماء البكماء تقول : لقد قابلت كثيرين مُبصرين ولكنهم برغم ذلك لا يرون شيئاً من جمال الطبيعة وعظمة البحار وروعة النجوم فى السماء وبريق الكنوز الدفينة فى الكتب وفى حياة العظماء والفلاسفة ورجال الفكر . وعندى أن أمثال هؤلاء كان خيراً لهم أن يصابوا بالعمى ويعيشوا فى دنيا الظلام الحِسِّى ، ويُعوضوا بأعينهم شعورا مُرهفا وعقلا يقظا ووَعْيا ناضجا .

فالظلمة الحقة هى ظلمة الجهل وبلادة الإحساس وضيق الفكر .

---

(١) التعريفات للجرجانى ص ٣١

والمصدر الثانى الذى هو العقل ما هو ؟

يقول عنه « ارسطوطاليس » « العقل نوعان : غريزى ، ومستفاد . فالغريزى خلقةٌ انفرد بها الخالق عز وجل . والمستفاذ فائدة المتعلم . ولا سبيل إلى فائدة المتعلم إلا بصحة العقل الغريزى . ومن صح منه العقل الغريزى استفاد به العقل المتعلم . وإذا اجتمع العقل الغريزى إلى العقل المتعلم قواه تقوية الشمس نورَ البصر (١)

ويعقد أبو بكر محمد بن زكريا الرازى فصلا عن هذا المصدر ـ العقل ـ يقول :

« إن البارى عز اسمه إنما أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما فى جوهر مثلنا نيله وبلوغَه ، وإنه أعظمُ نعم الله عندنا ، وأنفعُ الأشياء لنا ، وأجداها علينا . فبالعقل فضلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملكناها ، وسسناها ، وذللناها ، وصرفناها فى الوجوه العائدة منافعُها علينا وعليها .

وبالعقل أدركنا جميع ما يَرفقُنا ، ويحسنُ ويطيبُ عيشُنا ونصلُ إلى بغيتنا ومرادنا ، فأنا بالعقل أدركنا صناعة السفن ، واستعملها ، حتى وصلنا بها إلى ماحال البحر دوننا ودونه .

وبه نلنا الطب الذى فيه الكثيرُ من مصالح أجسادنا ، وسائر الصناعات العائدة علينا النافعة لنا ، وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا الخفية المستورة عنا . وبه عرفنا شكل الأرض ، والفلك ، وعظمَ الشمس

(١) الحكمة الخالدة لأبى على احمد بن محمد مسكويه تحقيق الأستاذ عبد الرحمن بدوى .

والقمر ، وسائرَ الكواكب ، وأبعادَها ، وحركاتها ، وبه وصلنا إلى معرفة البارى عز وجل الذى هو أعظم ماستَدركنا وأنفعُ ما أحببنا .

وبالجملة فانه الشيء الذى لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين .

والذى به نتصور أفعالنا العقلية قبل ظهورها للحس فنراها كأن قد أحسسناها ثم نتمثل بأفعالنا الحسية صورَها فتظهرُ مطابقة لما تمثلناه وتخيلناه منها . وإذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلالته فحقيق علينا أن لانحطه عن رتبته . ولا نُنزله عن درجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكوما عليه ، ولا هو الزمام مزموماً ، ولا وهو المتبوع تابعاً ، بل نرجع فى الأمور اليه ، ونعتبرها به ، ونعتمد فيها عليه ، فنمضيها على إمضائه ونوقفها على إيقافه . ولا نسلط عليه الهوى الذى هو آفته ، ومكدره ، والحائد به عن سنَنَه ومحجّته واستقامته والمانعُ من أن يصيب به العاقلُ رشده وما فيه صلاحُ عواقب أمره ، بل نروضه ونذلّله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه .

فأنا إذا فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه وأضاء لنا غاية إضاءته وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به . وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ومن علينا به .[1]

والمصدر الأول — الخلق — أسبق من العقل أى أنه أول مايَنْبُض فى الانسان حين يتأثر بمؤثر داخلى كالجوع ، أو بمؤثر خارجى كالخطر الآتى من حريق أو غيره مثلا . ثم لايلبث أن ينبرى المصدر الثانى أى

---

(١) رسائل الرازى تحقيق مستر « كراوس »

العقل . فيجعلك تتروى ، وتتدبر ، وتتبصر أمام هذا التأثر .

وهذا الخلق منه ماهو غريزى بحت قلما تنفعه التربية ، والعوامل الخارجية ، والبيئة الاجتماعية ، كالحب ، والجوع .

ومنه ماهو شبه غريزى أى فطرة طبيعية وإنما للعوامل والبيئة تأثير فيه كثيراً أو قليلا كالشجاعة والجبن .

وقبل أن نعرف ماهو الخلق فى اصطلاح علمائه ينبغى أن نعرف أولا العمليات النفسية التى تتقدم الفعل .

تقدم فى موضوع علم الأخلاق أن أول ما يرد على القارب الخاطر وهو حديث النفس .

ثم يلى هذا الحديث الميل .

والميل بالفتح عرفه الشيخ الرئيس فى رسالة الحدود « بالكيفية التى بها يكون الجسم مدافعاً لما يمانعه عن حركة إلى جهة ما » وقد يُطلق الميل على نفس المدافعة . وهذا راجع إلى الأول لأن نفس المدافعة كيفية يكون بها الجسم مدافعاً — أى أن الميل هو توجه من الإنسان لشيء يتصوره ويدرك الغرض منه والغاية المترتبة عليه ، فالإنسان لا يدافع المانع إلا من أجل شيء يميل إليه ، ولا يميل الإنسان إلى شيء إلا إذا كان يتصوره ويُدرك منه الغرض والغاية . والمتكلمون يسمون الميل اعتمادا .

وقد يكون من الحسن هنا أن نفرق بين الغرض والغاية .

قالوا : إن ما يترتب على فعل إن كان تصوُّرُه باعثا للفاعل على صدوره عنه يُسمى غرضاً وعلة غائية ، وإلا يسمى فائدة ومنفعة وغاية .

والمراد بكون تصور الفعل باعثا للفاعل على صدوره منه أنه محتاج إليه فى تحصيل كماله ، ويكون بدونه ناقصا بالذات ، ومعه يكون مستكملا لغيره فيكون تصور الغرض مما لا بد للفاعل منه لئلا يبقى ناقصاً . ولذا قالوا : إن أفعال الله تعالى ليست مُعَلَّلَة بالأغراض وإن كانت فيها فوائد ومنافع ومصالح وغات [1]

الخطوة الثالثة من الحركات النفسية فى سبيل إبراز الفعل على مسرح هذه الحياة الرغبة . وهى : « تغلب ميل على سائر الميول التى تعيش معه فى عالم واحد ، والعالم الواحد هو عبارة عن ميول كثيرة تدور حول غاية واحدة .

فأنت مثلا : غايتك أن تكون غنيا ولكن كيف تتوصل إلى الغاية . هل تشتغل بالتجارة ؟ أو بالزراعة ؟ أو بالصناعة ؟ فاتجاهك إلى التجارة ميل ، وإلى الزراعة ميل آخر ، وإلى الصناعة ميل ثالث ، فإذا تغلب ميل من هذه على سائر الميول التى تدور معه على محور واحد وانتصر عليها كانت الرغبة .

الخطوة الرابعة الإرادة وهى : « صفة توجب للحى حَالاً يقع منه الفعل على وجه دون وجه ، أو هى صفة تخصص أمرا مّا لحصوله ووجوده . قال تعالى: « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »

وإذا كانت الرغبة هى تغلب ميل على سائر الميول التى تعيش معه فى عالم واحد . فأن الإرادة هى تغلب عالم على عالم آخر .

---

(١) جامع العلوم الملقب بدستور العلماء للقاضى الفاضل عبدالنبى بن عبدالرسول الأحمد نكرى مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد ركن الهند ج ٣ ص ٢

وهذا يساوى ما قلناه فى تعريفها الأول « نقلا عن الجرجانى فى تعريفاته » .

والفرق بين الرغبة والإرادة أن الرغبة تقف عند الميل وتترك الأمر للإرادة . وهذه قد تأمر بالفعل أو لا تأمر .

مثلا ترى من يرغب فى أن يَشرب كأساً من الخمر ولكن لا يُريده لأنها تضر كبده فالإرادة هنا نهت عن الفعل ، فإذا لم يقم مانع فى سبيل الرغبة فالإرادة هنا هى الأمر بالفعل . وسواء نهتك الإرادة أو أمرتك فهى لا تنبرى لمباشرة الفعل مستقلة وحدها بل لا بد من خطوة خامسة وهى « التصميم » فإن أردت وفعلت كان التصمم مقترنا بالإرادة . وإن أردت وسوفت بقى الفعل متوقفا على التصميم .

وإذا مال الإنسان لشىء وكرره كثيراً فى الخارج أصبح له عادة . والعادة متى تكررت وانتقلت من جيل إلى جيل أصبحت بعد عديد الأجيال غريزة .

وليست أخلاق الإنسان إلا مجموعة غرائز : يرث الإنسانُ بعضَها من الحيوان ولكنها تَرقَّت فيه وتأنقت .

ويُكتسب بعضها على توالى الأجيال والقرون بفعل العوامل الاجتماعية . وسَمَّوها عند الإنسان أخلاقا تميزا لها عن غرائز الحيوان التى لا تزال وَحشية مقصورة على مطالب الحياة المعدودة .

« وبعد » فما هو الخلق ؟

عرفه قوم بأنه « عادة الإرادة » وعرفه آخرون بأنه « تغلب ميل

من الميول على غيره باستمرار » وقد عرفت ماهو الميل ، وماهى الإرادة.

ويقول محى الدين ابن العربى فى رسالته « تهذيب الأخلاق » : إن الخلق هو حال للنفس بها يفعل الإنسان أفعاله ، بلا روية ولا اختيار » ثم يقول : والخلق قد يكون فى بعض الناس غريزة وطبعا ، وفى بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد كالسخاء يوجد فى كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمد . وكالشجاعة . والحلم . والعفة . والعدل . وغير ذلك من الأخلاق المحمودة . وكثير من الناس يوجد فيهم ذلك بالرياضة . ومنهم من يبقى على عادته ويجرى على سيرته .

فأما الأخلاق المذمومة فأنها موجودة فى كثير من الناس كالبخل ، والجبن ، والظلم ، والتشرد ، فأن هذه العادات غالبة على أكثر الناس مالكة لهم ، بل قلما يوجد فى الناس من يخلو من خلق مكروه ويسلم من جميع العيوب ، ولكنهم يتفاضلون فى ذلك ، وكذلك فى الأخلاق المحمودة قد تختلف الناس ويتفاضلون إلا أن المجبولين على الأخلاق الجميلة قليلون جداً ، فأما المجبولون على الأخلاق السيئة فأكثر الناس لأن الغالب على طبيعة الناس الشر .

ويقول الجرجانى فى تعريفاته : الخلق : «هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية » .

فأن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلا وشرعاً بسهولة سميت الهيئة خلقاً حسناً . وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقاً سيئاً .

وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على الندور بحال عارضة لا يقال خلقه السخاء مالم يثبت ذلك فى نفسه ، وكذلك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم .

وليس الخلق عبارة عن الفعل فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء .

يقول أفلاطون : إن الفضيلة لا تتحقق بعمل فاضل واحد ، ولكن لتكون حقيقة ينبغى أن تكون نتيجة لماض عملى طويل [1] .

وقد يكون من الحسن هنا أن نعرف مدلول كلمة حال قبل أن ننتقل إلى الكلام على الفطرة الإنسانية .

كلمة « حال » لها معان مختلفة عند أهل اللغة ، وعند النحويين . وعند أرباب المعانى . وعند أرباب السلوك . وعند الحكماء .

أما معناها لغة فهو « نهاية الماضى وبداية المستقبل » .

وفى اصطلاح النحويين « ما يبين هيئة الفاعل أو المفعول به .

وعند أرباب المعانى « الأمر الداعى إلى التكلم على وجه مخصوص » ككون السامع منكراً ، أو خالى الذهن ، أو متردداً ، فإن كَوْن المخاطب مثلا منكراً للحكم حال تقتضى تأكيداً ، فالتأكيد هو الوجه المخصوص .

وعند أرباب السلوك « ما يرد على القلب من موهبة الوهاب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة . وإنما سمى حالا لتحوله ، فإذا دام وصار ملكة سمى مقاماً » .

---

(١) مقدمة الأخلاق لارسطوطاليس ترجمة أستاذنا أحمد لطفى السيد ص ٥٠

فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتى من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود .

وعند الحكماء صفة غير راسخة للنفس كالكتابة فى الابتداء وبعد الرسوخ تسمى ملكة (١) .

ومهما يكن من شيء فلا بد أن يكون الحال راسخاً ثابتاً وإلا فلا يستقيم التعريف .

وإلى هنا عرفت الخطوات النفسية التى تتقدم الفعل ، وكيف يصبح الفعل خلقاً . وأن أول خطوة نفسية هى الخاطر ، فالميل ، فالرغبة ، فالإرادة ، فالعزم أو التصميم ، فالفعل . وعرفت أن نفسك إذا مالت إلى شيء وكررته فى الخارج أصبح هذا الشيء لك عادة فليس الخلق ، إلا عادة الإرادة ، وعرفت أن العادة متى تكررت وانتقلت من جيل إلى جيل أصبحت بعد عديد الأجيال غريزة .

وإذا كنت قد عرفت كيف يتكون الخلق من الناحية النفسية ، أو عرفت شيئاً عن هذه القوى النفسية الصادرة من الإنسان نفسه ، فأنا بعد ذلك نريد أن تعرف كيف يتكون الخلق من الناحية العملية ، أو نريد أن تعرف شيئاً عن هذه القوى الخارجة عنك ونعنى بها الوراثة ، والبيئة ، فإن أخلاق الفرد تنبع من هذين الأصلين ، وأن أخلاق الفرد منها تتكون وبها تتأثر .

وقبل أن نتكلم عن المنابع التى تنبع منها الأخلاق نعرف شيئاً عن الفطرة الانسانية .

---

(١) دستور العلماء ج ٢ ص ٣ ، ٤ والتعريفات للجرجانى ص ٥٥ ، ٥٦

الفطرة الإنسانية :

الجمعية الإنسانية صنف من أصناف المادة المتحركة فى هذا الكون . ولها ظواهر كظواهر طوائف الطبيعة فى هذا العالم ، فالإنسان يأتلف عند ما يتوافق مع غيره ، ويفترق عند ما يتنافر معه ، كما تأتلف بعض العناصر بالألفة الكيماوية إذا توافقت ، وتفترق إذا تنافرت . فهو كما ترى مع غيره متدافع ، متجاذب مؤتلف ، مفترق كما ترى عناصر الطبيعة كذلك .

فهل طينة الإنسان الأولى ، أو طبيعته قد جاءت فى الأصل متوافقة والتنافر طارىء . أو هى قد جاءت وفيها استعداد لهذين الأصلين معا . أو بعبارة أخرى هل طينة الإنسان الأول أو طبيعته قد كانت خيرا فحسب والشر طارىء ، أو شرا فحسب والخير طارىء ، أو جاءت فى الأصل وفيها استعدادا لهما معا ؟

خلاف : قوم يذهبون إلى أنها كانت خيرا والشر طارىء .

وقوم يقولون : العكس .

وفريق ثالث يقول : بل طبيعة الإنسان الأولى مستعدة لهما معاً . مثلها فى ذلك مثل خطوط غير ظاهرة فى صحيفة بيضاء ، مسها الماء فظهرت هذه الخطوط ما بين خضراء ، وحمراء ، فكذلك ، نفس الطفل يولد وفيه هذه الخطوط كامنة غير ظاهرة ، والتربية هى التى تظهرها .

هذه هى المسألة وإليك ماورد فيها من خلاف ولكن قبل أن نورد هذا الخلاف نحدد المراد من كلمة « الطبيعة أو الفطرة » .

يقول الجرجانى فى تعريفاته : الطبيعة عبارة عن « القوة السارية فى الأجسام بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعى » وهذا التعريف يفسره قول

الرواقيين : إن الشيء الواقع يتألف من عنصرين :

أحدهما : منفعل وهو المادة .

والآخر : فاعل وهو القوة التي تحل في المادة وتتغلغل في جميع أجزائها فتشكلها وتحركها فلا مادة بغير قوة ولا قوة بغير مادة .

والطبع هو « ما يقع على الإنسان بغير إرادة » .

وقيل الطبع بالسكون « الجبلة التي خلق الانسان عليها » .

وورد في جامع العلوم الملقب بدستور العلماء [1] أن الطبيعة هي : « مبدأ الأفعال الذاتية الكائنة لما هو فيه بلا شعور وإرادة .

وقد يراد بها القوة السارية في الأجسام بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعي ، وقد تطلق الطبيعة ويراد بها الحقيقة والذات . والأطباء يستعملون لفظ الطبيعة على المزاج : وعلى الحرارة الغريزية . ويقول السيد في حاشيته على المطول في فن البيان : إن الطبيعة في اللغة هي « السجية التي جبل وطبع عليها سواء صدرت عنها صفات نفسية أولا . نعم قد أطلقوا في الإصطلاح الطبيعة على الصورة النوعية وهي : الجوهر الذي تختلف به الأجسام » وبعبارة أخرى هي : « الجوهر الذي هو مبدأ الآثار الخارجية المختصة » ولها ثلاثة أسماء بثلاثة اعتبارات « الكمال » باعتبار أن الجسم الطبيعي يتم بها . و « القوة » باعتبار تأثيرها في الغير و « الطبيعة » لكونها مبدأ الأفعال الذاتية ومهما يكن من قول في تحديد « الطبيعة » فأن المراد بها هنا الفطرة التي خلق الإنسان عليها .

---

(١) ج ٢ ص ٢٨٣ مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد .

وإليك بعد هـــذا الاستطرادما قالوه فى هذه المسألة .

يقول أفلاطون : « إن أشد مافى الإنسان من الاستعدادات الفطرية هو أن نفسه تجانب الشر وتجرى وراء الخير الأعلى وتلزمه متى وصلت إليه » (١)

وإذا قلنا أفلاطون فكأننا قلنا سقراط أيضا لأن مذهبهما فى الأخلاق واحد (٢)

ويقرر الرواقيون : أن الطبيعة الإنسانية طاهرة فالقوة التى تحيا بها المادة — عندهم هى «الله» حالا فى العالم كحلول النفس فى الجسد ، والله ليس فقط القوة المحركة بل هو أيضاً الإحساس والعقل والإرادة فجعلوا للكون وجوداً حيًّا حقيقيا . جميع أجزائه متآلفة متجانسة . وبتأثير فعله تتحرك جميع الموجودات بنظام مســـتمر طبقاً لقوانين ثابتة ولغايات عقلية (٣)

ويقول جان « جاك رسو » : « إن الطفل خير بطبيعته والشر يأتى إليه من البيئة » .

وأقوى حجة لهؤلاء جميعا : أن الإنسان أثر من آثار الله جلت قدرته والله خير لا يصدر عنه إلا كل خير . حتى أن أعظم الأسباب التى دعت

---

(١) مقدمة كتاب الاخلاق لأرسطو طاليس ص ٦٤

(٢) المصدر السابق ص ٣١

(٣) تاريخ الفلسفة لحنا أسعد فهمى ص ١٠١ طبعة المطبعة اليوسفية

الطبيعيين لأن ينكروا وجود إلـه حكيم خَيِّر مدبر لهذا العالم هو وجود الشر على نحو ما يظهر فى هذا العالم.[1]

يقولون : إن كوناً أوجده إلـه قدير حكيم خير لينبغى أن يكون آية فى الحسن والخير . ولكن الشر مستفيض فى كل مكان . شر مادى : من الألم بكل اشكاله . وشر معنوى : من الخطيئة ، والرذيلة ، والجريمة . وكل هذه الشرور بأشكالها المختلفة ليست عرضية . بل إن قانون الحياة على قسوة تستدعى الهول . فلا يستطيع حيوان أن يبقى إلا على حساب كائن حى آخر .

فآكلة العشب لا تعيش إلا بأن تعيث فى النبات .
وآكلة اللحم لا يعيش أكثرها إلا على القتل . فكيف يؤلف بين أمور كهذه وفرض العناية الإلهية ؟ هكذا يتساءلون ؟ !!!

ومن هنا ينبُع قول من يقول : أن الإنسان خلق شريراً بالطبع ، وبذلك يقول جمهرة البراهمة والبوذيين من فلاسفة الهنود ومن تبعهم من العرب .

فغـاية النفس فى الفلسفة الهنـــدية الوصول إلى الاتحاد ببرهمة وذلك بتجردها من الهيولى ، فإذا تطهرت تنال هذا القصد . أما الشريرة فتسقط فى « ناراكا » لتعذب مائة سنة من سنى برهمة ، مع ملاحظة أن اليوم البرهمى يوازى ثمانية مليارات و ٦٥٠ مليون سنة شمسية ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٠١
(٢) المذاهب الفلسفية لأندره كريسون ترجمة الدكتور حكمه هاشم

والنفوس التى تكون وسطاً بين الخير والشر يصير تطهيرها بتقمصها فى جسم حيوان أو إنسان [1] .

وجماع المذهب البوذى أنه يبشر بالحقائق الآتية ، وهى :

١ — الوجود الحسى ضلال وغرور .

٢ — الرغبة الناشئة من هذا الوجود تنتج الألم .

٣ — غرور وألم الوجود المادى يمكن ملاشاتهما بانعدام الوجود المتحرك فى قلب الوجود الثابت .

٤ — للوصول إلى هذا الانعدام الحسى يجب إنكار الذات ، وملاشاة كل رغبة ، وعلى هذه الحقائق الأربعة تبنى أخلاقية بوذا ، وفيها كما ترى أن الطبيعة الانسانية أصلها الشر فالوجود الحسى كله ضلال وغرور [2] .

ويذهب أبو العلاء المعرى مذهب البراهمة والبوذيين فى أن الطبيعة الانسانية أصلها الشر يقول :

والشر فى الجد القديم غريزه ... فى كل نفس منه عرق ضارب

واسمعه يقول فى أخلاق الناس :

بُعدى من الناس برءٌ من سقامهم ... وقربهم للحجى والدين أدواء

ويقول فى دار الشرور « الدنيا » :

دنياك دار شرور لا سرور بها ... وليس يدرى أخوها كيف يحترس

بينا امرؤ يتوقى الذئب عن عُرُضٍ ... أتاه ليث على العِلاّت يفترس [3]

---

(١) تاريخ الفلسفة لحنا اسعد فهمى ص ١٠

(٢) المصدر السابق ص ١١ ، ١٢

(٣) مناهل الأدب العربى ١٠ — لزوميات — ٢

وخير بلاء الله ما كان خالياً

من الإنس فاسكن فى القفار البسابس

وإنى لأحسب أن فى هذا القدر كفاية تدليلا على هذين الرأيين المتناقضين. وواقع الأمر على مسرح هذه الحياة يكذبهما تكذيباً ويرفضهما رفضاً ، فالخير موجود ، والشر موجود من أيام الجد الأول بل يقول الجاحظ : إن الإختيار والاختبار لا يكونان والدنيا كلها شر صرف ، أو خير محض فإن ذلك لا يكون إلا بالمزاوجة بين المكروه والمحبوب ، والمؤلم والملذ ، والمحقر والمعظم ، والمأمون والمخوف (١) .

إن هذين الرأيين يهدمان الأديان والشرائع رأساً على عقب . وإلا فما معنى إرسال الرسل ؟ اللهم إلا إذا كان ذلك عبثاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

تأمرنا الشريعة بالصبر « إن الله مع الصابرين » — « وبشر الصابرين » « واستَعِنُوا بالصَّبْر وَالصَّلاة » فما معنى ذلك إذا كانت الدنيا خيراً محضاً ، أو شراً محضاً ؟!!! .

تأمرنا الشريعة بالاستقامة « وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزانَ بالقسط » « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » فما معنى ذلك إذا لم تكن الدنيا مزيجاً من الخير والشر ؟!!!

وأخيراً — وليس آخراً — تأمرنا الشريعة بأن نتمسك بالحق

---

(١) الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ٩٣

« وتواصوا بالحق » فما معنى هذا التواصى إذا كانت الدنيا لا تعرف إلا واحداً من هذين الرأيين المتناقضين ؟ ! ! !

الحق أن واقع الأمر من إرسال الرسل والمشاهدة تثبت أن الطبيعة الإنسانية فيها استعداد للأمرين معاً ، والتربية هى التى تظهر أحدهما على الآخر .

والقرآن الكريم يخبرنا بوجود الطريقين : طريق الخير وطريق الشر فى قوله سبحانه وتعالى : « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » (سورة البلد آية ٨ ، ٩ ، ١٠) .

« وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قد أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » (سورة الشمس آية ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .

لكن هل الشر هو الأسبق وجوداً فى هذه الحياة أو الخير هو الأسبق ، أو كانا معاً على نحو لا نستطيع معه تقديماً وتأخيراً ؟

يظهر أن الخير هو الأسبق ، يقول الكتاب العزيز : « وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى » أفلا ترى أن الإخبار فى هذه الآية على هذا النحو يفيد أسبقية الخير ؟

وابن خلدون يقول : إن البدو أقدم من الحضر وأن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر ويسبب ذلك بأن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى تكون متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ويستدل بقوله صلوات الله عليه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه .

وهذا الحديث يفيد أن الأصل فى الفطرة الأولى الخير ، كما يفيد بجوار ذلك أن النفس الإنسانية ليست متحجرة على نوع واحد بل فيها الخطوط الأولى لكل من الخير والشر والتربية هى التى تظهر أحدهما وتطمس الآخر ، أو تظهرهما على نسب مختلفة .

* * *

هنا ألاحظ أن الذين يقولون : إن الفطرة الإنسانية أصلها الشر أكثرهم شرقيون . وأن الذين يقولون : أصلها الخير أغلبهم غربيون . فهل لهذه الفلسفة علاقة بتأخر الشرق وتقدم الغرب ؟ .

أكبر الظن عندى أنها عامل من العوامل .

ذلك أن الفلسفة التى تقول : إن الفطرة الإنسانية أصلها الشر هذه الفلسفة تدفع الإنسان إلى « التشاؤمية المطلقة » هذه التشاؤمية التى تجعله يسيء الظن بكل إنسان ، وينظر إلى الدنيا دائما بمنظار أسود ، وهؤلاء يحققون تشاؤمهم بالفعل ، فلن يصمدوا فى حادثات الدهر ، ونوازل الأيام . وفى ذلك التأخر بعينه .

وعلى العكس من ذلك ترى أصحاب المذهب الآخر مرحين يحبون الناس ، ويثقون بهم ، وينظرون إلى الدنيا نظرة فيها موسبق وغناء . لا شقاء وبلاء .

إن الذين يؤمنون بأن الفطرة الإنسانية أصلها الشر يمتزج تفكيرهم وسلوكهم دائما بالسوء من بنى الإنسان ، وعلى بنى الإنسان . وتستطيع أن تُقَرب لنفسك المسألة بأن تتخيل شخصين اثنين : أما أحدهما فلا يثق بأحد حتى بنفسه . إن تقربت إليه ظن بك السوء وإن تباعدت عنه ظن بك

السوء ، وإن وقفت منه على حال ليس فيها قرب ولا بعد فهو كذلك سيء الظن بك ، ولا ينالك منه إلا الضر .

وأما الآخر فسهل لين : إن تقربت إليه حمد لك ، وإن تباعدت عنه تلمس لك المعاذير ، وحمل بُعدك عنه على محمل حسن ما دام هناك لذلك مخرج . فأنت عن شره بعيد ، وإلى خيره قريب .

ولست فى حاجة إلى أن أقول : بأن « الحذر » شيء و « سوء الظن » شيء آخر . فمن يقول : « إن سوء الظن من أقوى الفطن » إنما يقصد « الحذر » ويريد منك ألا تكون « مغفلا » أما سوء الظن على معنى أن تجعل « الخيانة » هى الأصل ، فتلك هى الرذيلة .

وذلك هو ما يعنيه صلوات الله عليه فى قوله : « إياكم والظن فأن الظن أكذب الحديث » (١).

والذين يؤمنون بأن الفطرة الإنسانية أصلها الشر يجعلون « الخيانة » هى الأصل .

وإذا نظرنا إلى الأمم القوية الآن على مسرح هذه الحياة فإنا نرى فى الصف الأول منها أمةً جعلت شعارها هذه الكلمة : « الخزى لمن يفكر هنا بالسوء » تلك هى الأمة « الانكليزية » .

والذين يعرفون قصة « ربطة الساق » يعرفون كيف نشأ هذا الشعار . ولا بأس من ذكر القصة بجملة وها هى ذى :

كان أحد ملوك بريطانيا فى القرون الوسطى خطيباً لأحدى نبيلات

---

(١) صحيح التجارى م ٢٢ ص ١٣٧ « عمدة القارى » طبعة « منير »

بلاده ، وفى أثناء مراقصتها فى إحدى حفلات القصر الملكى سقطت ربطة ساقها عن جوربها ، فانتحى بها ناحية وركع يصلحها ، فلمحه الأمراء والنبلاء الذين كانوا فى قاعة الرقص فتغامزوا عليه لاختلائه بها . فلما لاحظ الملك سمات سوء الظن المرتسمة على وجوههم استاء جدا ، وقال بالفرنسية وهى اللغة التى كانت تسود البلاط الملكى فى ذلك الوقت .

قال : « الخزى لمن يفكر هنا بالسوء » فأصبحت هذه الكلمة شعاراً لملك بريطانيا وللأسرة المالكة . حتى تراها مكتوبة بالفرنسية بين أسدَى التاج البريطانى .

وإذا كانت ربطة الساق قد أوحت بهذه الكلمة التى اتخذها التاج البريطانى شعاراً له . فأن « وسام » رَبطة الساق فى بريطانيا هو الآن أعلى وسام فى الدولة .

وأحسب الأمة الانكليزية تتأدب بهذا الشعار من الناحية الخلقية ، على معنى أن روح « التفاؤل » فيها هو الذى يسيطر على حياة الأفراد فى سلوكهم الخاص والعام .

وإذا كان « أفلاطون » و « أرسطو » و « زينون » و « سبينوزا » و « ليبنتس » الكل قد أخذوا بفكرة التفاؤل ، وحاولوا أن يؤسسوا أخلاقا موضوعيه متفقة مع هذا المفهوم للعالم ، فأن العلامة « ج.م.جويو » صاحب كتاب « الأخلاق بلا إلزام ولا جزاء » يحمل حملة شعواء على التفاؤلية المطلقة فيقول : إنها أولى بأن تعد منافية للأخلاق من أن تعد أخلاقية . لأنها تنطوى على نفى للتَّقَدم ، فمتى دَاخَلَت النَّفسَ أحدثت شعوراً بالرضى عن كل واقع ، فهى من الناحية الأخلاقية تبرير لكل شيء .

وهى من الناحية السياسية احترام لكل سلطة ، واستسلام ، وخنق إرادى ، لكل شعور بالحق ، وبالتالى لكل شعور بالواجب .

فما دام كلُّ شيء حسنا ، فينبغى أن لا تغير فيه شيئاً ، بل ينبغى أن لا تدخل أى تعديل على صنع الله ، فأن كل ما يحدث فهو خير ، ما دام جزءاً من العمل الذى أتمه الله بكل تفاصيله ، وهكذا نصل لا إلى تبرير الظلم فحسب ، بل إلى تأليهه أيضاً .

إننا نعجب اليوم من المعابد التى شادها الأقدمون لأمثال « نيرون »[1] و « دوميتان »[2] لأنهم لم يكونوا يأبون استساغة الجريمة فحسب ، بل كانوا يؤلهونها . . . إلى أن قال :

ألا إن التشاؤم ليستطيع أن يكون فى كثير من الأحيان أسمى من التفاؤل المتطرف من حيث هو قيمة اخلاقية ، فالتشاؤم لا يثنى دائماً عن العمل فى سبيل التقدم ، ولئن كان مؤلماً أن ننظر إلى كل شيء نظرة سوداء ، فإن هذا لأكثر فائدة فى بعض الأحيان من أن تنظر إلى كل شيء نظرة وردية أو زرقاء .

ولئن كان التشاؤم دليلا على فرط تأثر فى الحس الأخلاقى فأن التفاؤل دليل على ضعف هذا الحس الأخلاقى ، ودليل على تخدره ، فكل من لا يفكر ، بل يدع الحبل على الغارب يكون متفائلا بطبعه ، فالشعب الجاهل ، ولا سيما فى الأرياف يكاد يكون فى مجموعه راضياً عن الحال الراهنة .

---

(١) نيرون امبراطور رومانى حكم من سنة ٥٤ إلى سنة ٦٨ م . كان أقسى القساه ، قتل كل من أحسن إليه ، منهم زوجته وأمه ، وأستاذه . حرق « روما » واضطهد المسيحيين .

(٢) امبراطور رومانى ، وهو آخر القياصرة الاثنى عشر ، كان حكمه فى بادىء الأمر عادلا ، وانقلب أخيرا إلى طاغيه ، بل أطغى الطغاة ، حكم من سنة ٨١ إلى سنة ٩٦ م

فهو جامد على حال رتيبة لا تتغير — وأكبر الشرور فى نظره هو التغير .

وعلى قدر ما يكون الشعب منحطاً يكون محافظاً محافظة عمياء ، وهذا هو الشكل السياسى للتفاؤل ، ولذلك فلا أخطر من أن تدعم التفاؤل بتأييد دينى أخلاقى ، وأن نجعله بذلك المبدأ الموجه للفكر والسلوك ، فلقد تتعطل نوابض الفكر الإنسانى حينذاك . ويتجرد الإنسان عندئذ من الأخلاق بواسطة الله (١) .

هذا ملخص حملة « جويو » على « التفاؤل » أو على « المتفائلين » والتى هى غاية ما يمكن أن يعترض به على ما أبديته من « ملاحظة » .

وإنى معه ضد « التفاؤل المتطرف » كما أنى أيضاً ضد « التشاؤم المتطرف » فلم يبق إلا « الاعتدال » وهو الذى يدعو إليه الإسلام فى قوله سبحانه وتعالى: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً » (٢).

وعلى أية حال فواقع الأمر أن أغلب الذين يقولون : إن الفطرة الإنسانية أصلها الشر شرقيون ، وأغلب الذين يقولون : بالعكس غربيون .

كما أن واقع الأمر يريك مقدار تقدم « الغرب » وتأخر « الشرق » أما مقدار تدخل هذه « الفلسفة » فيما نراه من تقدم وتأخر فهو عندى من أقوى العوامل .

لذلك أرى أن يغير « أسلوب » الموجهين حتى تهذب هذه الموجة : موجة « التشاؤمية » فى الشرق .

---

(١) ص ٢٠ ، ٢١

(٢) البقرة ١٤٤

« وبعـــد »

فمن أى تنبع الأخلاق ؟

تنبع الأخلاق من منبعين اثنين لا ثالث لهما : الوراثة ، والبيئة .

الوراثة

ماهى؟ أسبابها . طوائفها . قوانينها . وظائفها . ماتنقله . واجبنا نحوها

الأحاسيس الطبيعية فى الإنسان اثنان :

الأول — إحساس حفظ الذات .

الثانى — إحساس حفظ النوع .

هذان هما الإحساسان اللذان عليهما عمار الكون . فإذا كنت ترى الإنسان يجد ، ويكد ، ويشق هنا وهناك فذلك لأن يحفظ ذاته .

وإذا كنت تراه يتصدى لتكوين أسرة فيجمع إلى نفسه نفسا أخرى ، يتحمل أعباءها كما يتحمل أعباء نفسه ، ويسهر على مصالحها كما يسهر على مصالح نفسه ، فيضيف إلى متاعبه تعباً ، وإلى شقائه شقاء فذلك لأن يحفظ نوعه .

وللناس فى هذا الإحساس الثانى قيود تختلف باختلاف العصور والمجتمعات ، وهدف هذه القيود أن يُحافظ على ألا يختلط دم بدم .

ولقد لازمت هذه الظاهرة الإنسان فى تاريخه حتى الساعة ، وإن اختلفت قوة وضعفاً : قوة حين يفرضها الدين ، وضعفا نسيبا حين يفرضها العرف .